الجزء ٧ المجلد ٥

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : تموز سنة ١٩٢٥ م الموافق ذي الحجة سنة ١٣٤٣ ومحرم ١٣٤٤ هـ

شعراء الشام

« في القرن الثالث »

« للسيد خليل مردم بك أُلقيت على اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق لمناسبة انتخابه عضواً بالمجمع »

تمهيد

القرنُ الثالث من أيمنِ القرون على العربية وآدابها في كل الأقطارِ التي دخلت في حوزة العرب ، فلقد أزهرت في ذاك القرن حضارةُ اللغة ، وظهر به من الشعراء والمنشئين والأُدباء الأئمةُ العظام ، اما بحثنا هذا فمداره على أربعةٍ من شعراء الشام هم : العتّابي ، وابو تمّام الطائي ، وديك الجن ، والبحتري . عسانا نتبين منهم طريقة شعراء الشام في ذلك القرن ، وما لهم من الخصائص التي تميزهم عن غيرهم ، وما هو الأثر الذي أثروه في الشعر العربي .

من خصائص الشعر العربي أن له روحًا اذا تراءت للشاعر استحذى لها وملّكها قياده ، وأعني بذلك أنّ اختلاف أقطارِ الشعراء لا يكون له أثرٌ بينٌ في أسلوبهم البياني بمقدار ما بين أقطارهم من الفوارق ، فطابع الشعر العربي لا تمحوه طبيعةُ القُطر مهما بعُدَ عن قلب الجزيرة ، وانما تزيدُه وضوحًا او تُلحق به بعض إبهام بحسب طبْع الشاعر ، وعلةُ ذلك : أن العربَ من أشدّ الناس ضنًا بماضيهم وحنينًا اليه ، فلقد رُوِي عن ابن مقبلٍ الشاعرِ — الذي أدرك الجاهلية ومنّ الله عليه بالإسلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبدّله بالظلمات نوراً وشهد ما صارت اليه العرب من العزّة — أنه كان يبكي أهل الجاهلية . وأخرى : أن شعرَ العرب أصحبه الله تعالى من الرَّوْعة القدسية ما أصحب دينهم الذي ما دان به جيلٌ من الناس الا اصبحوا أكثر تشدُّداً به من أصحابه .

قال الجاحظ : « فضيلةُ الشعر مقصورةٌ على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب ، والشعرُ لا يُستطاع ان يُترجَمَ ، ولا يجوزُ عليه النقل ، ومتى حُوِّل تقطَّع نظمُه وبطَلَ وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور ، والكلامُ المنثورُ المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي حُوِّل عن موزون الشعر . ثم قال : ولو حُوِّلَتْ حكمةُ العرب لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن ، مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا من معانيها شيئًا لم تذكُرْه العجم » .

وقال ابن قتيبة : « ليس لِمُتأخّرِ الشعراء أن يخرجَ عن مذهب المتقدّمين فيَقِفَ على منزلٍ عامر و يبكي عند مُشيَّد البُنيان ، لأن المتقدّمين وقفُوا على المنزل الداثر والرسم العافي . او يرحلَ على حمار او بغل فيصفَهما ، لان المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يَرِدَ على المياه العذبة الجواري ، لأن المتقدّمين وردُوا على الأواجن الطوامي . أو يقطعَ الى الممدوح منابتَ الشيح والحَنْوة والعَرار ، لان المتقدّمين جَرَوْا على قَطْع منابت الشيح والحَنْوة والعَرار » .

فماذا عسى تكونُ بعد ذلك خصائصُ شعراء الشام التي تميزهم عن غيرهم إذا تدبرنا عوامل النسب والبيئة والزمن والموهبة ؟

عاش شعراء الشام في قُطرٍ إن أعوزتهم به الفصاحة رَفَدَتهم بها البادية ، وان عافوا بها جفاء الأعراب ، أوَوْا الى حضارةٍ زاخر بحرها ، دعْ عنك اعتدال القُطر وجمالَ طبيعتِه ، وهم بعدُ إما عرب خُلّص ، او ممن جرى دم العرب في أعراقهم .

قال ابو منصور الثعالبي : « لم يزل شعراء عرب الشام أشعرَ من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام ، والسبب في تبريز القوم قديمًا وحديثًا على مَنْ سواهم في الشعر قُربُهم من خِطَطِ العرب ، ولا سيما أهلَ الحجاز ، و بُعْدُهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن بلاد العجم ، وسلامةُ السنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفُرْس والنَّبَط ومداخلتهم إياهم » .

أظْهَرُ مزيةٍ في شعراء الشام التثقيفُ ، وأعني به تهذيبَ شِعْرهم ، فشاعرُهم مهما كان مطبوعاً سريع الخاطر ، فانه لا يَرمي الكلامَ على عواهنه ، ولا يرسله إرسالاً ، بل ينظر في أعقاب قوافيه ، ويعود عليها بالتنقيح . وقد أشار الى ذلك عَدِيُّ بن الرِّقاع أحدُ شعراء بني أُمية ، وكان منزله بدمشق ، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، قال :

وقصيدةٍ قد بِتُّ أجمعُ بَيْنَها ... حتى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها
نَظَرَ الْمُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِه ... حتى يُقيم ثِقَافُه مُنْآدَها

وكان يطعنُ على شِعر كُثيِّر ويقول : هذا شعر حجازيّ مقرور إذا أصابه قرُّ الشام جَمَدَ وهَلك .

وقال ابو تمّام الطائي :

قد ثَقَّفَتْ منه الشآمُ وسَهَّلَت ... منه الحجازُ ورَقَّقَتْه المشْرقُ

وقال ايضاً يصف قصيدة له :

جاءتك من نظم اللسان قِلادةٌ ... سِمطان فيها اللؤلؤ المكنونُ
أحذاكها صَنعُ اللسان يَمُدُّه ... جَفْرٌ اذا نَضَبَ الكلامُ مَعينُ
ويُسيء بالإحسان ظنّاً لا كمَنْ ... هو بابنه وبشعره مفتونُ

وقال البحتري في تهذيب الشعر :

حجج تُخرس الألدَّ بألفا ... ظٍ فرادى كالجوهر المعدودِ
ومعانٍ لو فصلتها القوافي ... هجنت شعر جرولٍ ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرك ... ن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البي ... ض اذا رحن في الخطوط السود

وكان البحتري يُلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً . فالتثقيف إذن خلقٌ في شعراء الشام وهو ما أُطلق عليه اسم الصنعة فيما بعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن الغرض الذي يذهب اليه المثقف يختلف باختلاف القائل وزمنه ، فقد يذهب الى الجزالة والحزونة كأبي تمام ، وقد يذهب الى العذوبة والسلاسة كالبحتري ، ولكن التثقيف لا ينفك عنهما . وكذلك اكثر شعراء الشام الذين نقدموهما اوتأخروا عنهما سواء أكانوا من شعراء الصنعة ام المعاني .

ومن مزايا شعراء الشام في القرن الثالث توفرهم على درس الادب العربي ، واشتغالهم بفنونه درساً وتأليفاً ، فلقد ألف العتّابي من الكتب : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الالفاظ ، وكتاب الاجواد . وتخرج به في الشعر منصور النمري الشاعر .

وابو تمام الطائي كان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره ، قيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه : لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال ، وألف من الكتب : كتاب الحماسة ، وكتاب فحول الشعراء ، وكتاب الاختيار من أشعار القبائل ، وكان يعمل ان يدلّ في شعره على علمه باللغة وكلام العرب . والبحتري الف كتاب الحماسة ، وكتاب معاني الشعر . ولعل هذه المزية متوارثة بينهم من قبل القرن الثالث ، قال عديّ بن الرقاع :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن علم واحدةٍ لكي أزدادها

فيظهر مما تقدم ان من مزايا شعراء الشام (التثقيف والعلم) فلنبحث عن المثل الاعلى الذي انحوه في شعرهم بواسطة التثقيف والعلم .

قال صاحب الاغاني في ترجمة ديك الجن : انه يذهب مذهب الشاميين في شعره ، فما هو مذهبهم ؟

وقال الثعالبي : « كان الصاحب بن عباد يعجب بطريقة الشاميين المثلى التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف حتى كتب دفتراً ضخم التجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي سنّ ثلمة فطوّراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله او يورده كما هو في رسائله .

وكان ابو بكر الخوارزمي يقول : ما فتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني وأرهف حدّ لساني و بلغ هذا المبلغ بي الا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت باجزاء نفسي » .

ومثل هذا الكلام عامٌ منتشر ، فما علينا الا ان نتابع البحث لعلنا ننتصف منه .

تبلج فجر القرن الثالث وكان الشعر العربي قد أتمّ طور انتقاله النسبي من البداوة الى الحضارة على يد بشّار بن برد وأصحابه ومن مقتضيات الحضارة التنوّق في كل شيء فشمل ذلك التنوق الشعر . ونشأ عنه تتبع البديع ، وكان العتابي في أوائل القرن الثالث فسلك تلك الطريقة وزاد بها على بشار ، وتلاه ديك الجن فأقبل على الصنعة ، وظلت صنعته سائغة لصدقه في شعره ، فانه لم يستجد به أحداً بل قصره على النسيب ، ووصف الخمر ، ورثاء عشيقته ، وبعض أصدقائه . وفي زمن ديك الجن نبغ ابو تمام الطائي فشغف بالجزالة ، وغاص على المعاني البعيدة ، وانصرف الى الصنعة ، وغلا فيها ، حتى عُدّ الإمام بهـا ، وعرفت هذه الطريقة بمذهب ابي تمام . وأدرك ابا تمام ابو عبادة البحتري ، وهما من قبيلة واحدة فأخذ عنه وحذا حذوه في البديع ، ولكن قوة طبعه وعذوبة لفظه أخفتْ أثر الصنعة في شعره .

فهؤلاء الاربعة الذين ظهروا من أوائل القرن الثالث الى أواخره كلهم مطبوع على قول الشعر — وان كانوا متفاوتين في ذلك الطبع — وكلهم لم يعتمد على طبعه وحده بل عانى الصنعة .

ولاي شيء بذلوا كل هذه العنـاية في سبيل اللفظ ؟ علة ذلك مجاراة الرأي السائد ، والتأثر بروح العصر واليك بعض الادلة على هذا الزعم :

كان دعبل الشاعر معاصراً لابي تمام وكان يثلبه و يقول : انه سروق للشعر ، فجاء بعد موت ابي تمام الى الحسن بن وهب ، فقال له رجل في المجلس : أنت الذي تطعن على من يقول :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع انجدني على ساكني نجد

فصاح دعبل : أحسن والله وجعل يردد : (فيادمع انجدني على ساكني نجد)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم قال رحمه الله : لو كان ترك لي شيئًا من شعره — لقلت انه أشعر الناس . فانظر الى ما فعل به الجناس وكيف استلّ سخيمته ، وأطلق لسانه بتقريظ ابي تمام وبترديد بيته .

والبحتري يقول :

واللفظُ حَلْيُ المعنى وليس يريـ ـك الصفر حسنًا يريكَه ذهبُـه

وفي كتب البيان والنقد التي أُلفتْ في القرن الرابع آراءٌ كثيرة تعظم من خطر اللفظ كثيراً ، ولا نمتري في انها كانت الآراء السائدة في القرن الثالث .

قال ابو هلال العسكري : « وليس الشأن في ايراد المعاني ، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أَوَد النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت » .

وقال ايضًا : « المعاني مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي ، وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » .

وقال الآمدي في كتاب الموازنة : « وليس الشعر عند أهل العلم به الا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان يورَد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه ، فان الكلام لا يكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف ، الى ان قال : فان اتفق مع هذا معنى لطيف او حكمة غريبة او ادب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه » .

بمثل هذه الآراء وهذه الاعتبارات اقبل الشعراء على الصنعة اللفظية ، ونحن لا نتعرض الى البحث في كونهم على خطأٍ او صوابٍ في ذلك ، وانما نريد ان نقولَ : هكذا كانت روحُ ذلك العصر ، وهكذا كان النقاد ينظرون الى جودة الكلام .

ولا أُريد ان اقفَ بك عند هذا الحد فتظن أن شعراء الشام انصرفوا الى اللفظ ولم يحفلوا بالمعنى ، كلا فهم ليسوا كذلك ، وانما حاولوا ان يبرزوا معانيهم باروَع صورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من صور الجمال اللفظي في المفردات والتراكيب ، ولكن لامناص من التصريح بانهم لم يلتفتوا الى المعنى بمقدار ما التفتوا الى اللفظ متأثرين بالرأي السائد ، واليك شيئاً منه وان كنت قد وقفت على بعضه عند الكلام على اللفظ :

قال ابو هلال العسكري : « أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم فليس على احدٍ فيه عيبٌ الا اذا اخذه كله او أخذه فافسده وقصر فيه عمن تقدّمه .

وقال الآمدي : أما أخذ البحتري بعض معاني ابي تمام فليس بمانع من أن يكون اشعرَ منه ».

ومع ذلك فشعراء الشام لم يقصروا في معانيهم ، فابو تمام معدودٌ من اكثر الشعراء المحدثين اختراعاً للمعاني ، والبحتريُّ قلَّ من جاراه في تأليف المعاني وتنسيقها ، وعندي انه — في دقة وصفه وبعد نظره ، وحسن الاداء عما ينفعل به من المشاهد — اشعر بكثير ممن يأتيك بمعنى أبترَ — لكنه مخترع — وقريبٌ من البحتري ديك الجن والعتابي .

فمزايا شعراء الشام في القرن الثالث : (التثقيفُ) و (العلم) و (الاستقصاء) و(الجزالة) من غير إغرابٍ و (العذوبةُ) و(السلاسة) من غير تخنث . ومجموع ذلك يمكنك ان تسميه مذهب الشاميين الذين تولوا زعامة الشعر في القرن الثالث ، وتمذهب بمذهبهم شعراء بقية الأقطار .

وفي ترجمة كلٍّ من العتّابي وابي تمام الطائي وديك الجن والبحتري على حدة ما ينهضُ دليلاً على رُجحان هذا الزعم ، ويقوم حجةً على صحة هذه الدعوى .

* * *

العتابي

كلثوم بن عمرو العتّابي وكنيته ابو عمرو يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر أحد أصحاب المعلّقات ، واصل العتّابي من الشام من ارض قنسرين وكان يقيم في رأس عين . أدرك بشار بن برد وهو حدث وانشده شعره ، وصحب البرامكة ثم صحب طاهر بن الحسين وعلي بن هشام القائدين ووفد على الرشيد والمأمون ، وتلمذ له في الشعر منصور النمري وكان راويته ، وكان محمد بن موسى الضبي راويته ايضاً ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكاتبه عبد الله بن خراش من أهل الشام معدود من البلغاء ، توفي العتّابي في حدود العشرين والمائتين وكان تزهد .

هو شاعر معدود في الشعراء المقدمين وكاتب مترسل بليغ وخطيب واديب مصنف وله من الكتب : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب في المواعظ والآداب والحكم ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الالفاظ قال ابن النديم : انه طريف ، وكتاب الأجواد ، وله ديوان شعر يدخل في مائة ورقة . ولأحمد بن ابي طاهر كتاب في اختيار شعره . وكان العتّابي ممن يعمل الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره .

كل هذه الكتب لم يُبق الدهر على شيء منها في ما نعلم وليس لدينا ما ينقع الغلة من أخبار الرجل ولم يبق من شعره ونثره الا النزر اليسير مبثوثاً في كتب الأدب فنسترشد الله ونستهديه في التحدث عنه مع قلة المواد .

عاش الرجل بعيداً عن دور الخلفاء التي كانت مهوى أفئدة الشعراء ومنتجعهم ، وكان في طبعه عزوف عن المخالطة وميل الى العزلة ، ويظهر انه قضى شطراً غير قصير من حياته عزباً ، فقد قيل له : لو تزوجت فقال : اني وجدت مكابدة العفة خيراً من الاحتيال لمصلحة العيال ، وكان مستغنياً عن معاشرة الناس بكلب له ، قال محمد بن حرب : رأيت العتّابي ينادم كلباً ، يشرب كأساً ويولغه كأساً ، فكلمته في ذلك فقال : انه يكف عني أذاه ، وأذى سواه ، ويشكر قليلي ، ويحفظ مبيتي ومقيلي ، فهو من بين الحيوان خليلي . قال ابن حرب : فتمنيت ان اكون كلباً لاحوز هذا النعت . ويدل على كونه فقيراً قوله :

اني امرؤ هدم الإقتار مأثرتي واجتاح مابنت الايام من خطري

ولكنه راضٍ عن فقره وقانع بالذي ناله من ثروة الأدب ، قيل انه كان جالساً ذات يوم ينظر في كتاب فمرّ به بعض جيرانه فقال ايش ينفع العلم والأدب من لا مال له ؟ فأنشد يقول :

يا قاتل الله اقواماً اذا نفقوا ذا اللب ينظر في الآداب والحكم
قالوا وليس بهم الا نفاسته أنافعٌ ذا من الإقتار والعدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس يدرون ان الحظ ما حرموا لحاهم الله من علم ومن فهم

وقال في الكتب :

لنا ندماء ما نملُّ حديثهم أمينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً وأمراً مسدَّدا
بلا علة تُخشى ولا خوف ريبة ولا نتقي منهم بناناً ولا يدا
فان قلت هم احياء لست بكاذب وان قلت هم موتى فلست مفندا

ودلّ على انه كان قصيراً قوله :

نهي ظراف الغواني عن مواصلتي ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري

وكان ينظر الى اكثر الناس نظره للبهائم ، قال عثمان الوراق : رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له ويحك أما تستحي ؟ فقال لي : أرأيت لو كنا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحتشم ان تأكل وهي تراك ؟ فقلت لا ، قال فاصبر حتى أعلمك انهم بقر ، فقام فوعظ وقصَّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم : روى لنا غير واحد انه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار فلم يبق احد الا وأخرج لسانه يومئ به نحو ارنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها ام لا ، فلما تفرقوا قال لي العتابي : الم أخبرك انهم بقر ؟

اما اتصاله بالرشيد فقد كان بطلب واستدعاء ، روي انه بلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه اليه وذلك خبر غريب يدل على استهجانه من القدوم على الخليفة ، فقد روي انه وافى الرشيد وعليه قميص غليظ وفروة وخفٌّ وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل ، وكانت المائدة اذا قدمت اليه اخذ منها رقاقةً وملحًا وخلط الملح بالتراب فاكله بها ، فاذا كان وقت النوم نام على الارض .

وصحب ايضاً البرامكة الذين أعجبوا بفصاحته كثيراً ، قال خالد البرمكي لولده : إن قدرتم ان تكتبوا انفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلاً عن رسائله وشعره فلن تروا ابداً مثله .

ووفد بعد الرشيد على المأمون ولكن بعد ان كتب باشخاصه اليه ، وكان المأمون يجله كثيراً ، قال جعفر بن المفضل : رأيت العتابي جالساً بين يدي المأمون وقد أسنَّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلما اراد القيام قام المأمون فاخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون فما زال ينهضه رويداً رويداً حتى اقله فنهض فعجبت من ذلك وقلت لبعض الخدم ما اسوأ ادب هذا الشيخ فمن هو ؟ قال العتابي .

ولكنه مع كل ما رأى من الحفاوة والقبول ، وما شهده من مظاهر الحضارة في بغداد وتوفر اسباب الترف ما زالت نفسه تحن الى العزلة وتقنع بما يسد العوز ، روي ان امرأته لامته وقالت له : هذا منصور النمري قد اخذ الاموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً وانت ههنا كما ترى فانشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... زوى الفقر عنها كل طرف ونالد
رأت حوطها النسوان يرفلن في الثرى ... مقلدة اعناقها بالقلائد
اسرك اني نلت ما نال جعفر ... من العيش او ما نال يحيى بن خالد
وان امير المؤمنين اغضني ... بغصها بالمشرفات البوارد
رأيت رفيعات الامور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجيئني ميتتي مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد

وقد قيل له : لم لا تقصد السلطان فتخدمه ؟ فقال : لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب ، ولست ادري اي الرجلين انا ، ولست ارجو منه مقدار ما أخاطر به .

اما طريقته في شعره فطريقة التنقيح والتهذيب والتحيص وتخير الصور الجميلة من الالفاظ الجزلة من غير إغراب ، وهو في المحدثين كالنابغة في الجاهلية — والنابغة منفرد بحسن الديباجة وكثرة الرونق والجزالة وخلو شعره من العيوب — ولم يصل العتابي الى هذه المنزلة الا بعد الدرس الطويل ، ولا يفسر اجتماعه ببشار بن برد وهو حدث في العراق الا بالرحلة في طلب الادب ولقد جرى على سنن بشار في شعره قالوا : اول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة ثم اتبعهما متتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وابو نواس .

قيل ان الرجل شاعر مطبوع متصرف في فنون الشعر واستدلوا على جودة طبعه وعدم تكلفه بقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رسل الضمير اليك تترى بالشوق ظالعة وحسرا
متزجيات ما بنين على الوجا من بعد مسرى
ما جف للعينين بعدك يا قرير العين مجرى
فاسلم سلمت مبرأ من صبوتي أبداً معرّى
ان الصبابة لم تدع مني سوى عظم مبرّى
ومدامعٍ عبرى على كبدٍ عليك اليوم حرّى

ولئن صح هذا المثال على طبعه فقلما يصح في غيره من شعره لان اشتغاله بالأدب ومعاناته التأليف واقتناءه الطريقة المتبعة في الشعر وقتئذ جعله لا يقتصر في الاعتماد على طبعه ، فأثر الصنعة ظاهر في اكثر شعره ، وكيف لا يكون ذلك وهو يقول : « الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وانما تراها بعيون القلوب ، فاذا قدمت منها مؤخراً او أخرت منها مقدّماً ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما لو حوّل رأس الى موضع يد ، او يد الى موضع رجل ، لتحولت الخلقة وتغيرت الجبلة » .

أية صنعة هذه ؟ هي صنعة المصور البارع الذي يرسم الصورة بأبهى مظهر ثم يغشيها من مناسب الألوان ما يريدها بهجةً وروعةً ثم لا ينسى ان يمدّ لها الظل .

ولكن أتراه قادراً على العمل بشرطه ؟ فإليك مثالاً من شعره الذي يبدو عليه أثر الصنعة الرائعة قال :

وأشعثَ مشتاقٍ رمى في جفونه غريب الكرى بين الفجاج السباسب
أمات الليالي شوقه غير زفرةٍ تردّد ما بين الحشا والترائب
سحبتُ له ذيل السرى وهو لابسٌ دجى الليل حتى مج ضوء الكواكب
ومن فوق أكوار المطايا لبانةٌ أحلّ لها اكل الذرى والغوارب
اذا ادّرع الليل الجلى وكأنه بقية هنديٍّ حسام المضارب
بركب ترى كسر الكرى في جفونهم وعهد الغيافي في وجوهٍ شواحب

فأي مصور يصور ذلك الاشعث المشتاق فوق أكوار المطايا وهو لابس دجى الليل بركب بدا كسر الكرى في أجفانهم ونطق عهد الغيافي في أوجههم الشاحبة مثل هذا التصوير ، ولو واتاه ذلك أتراه قادراً على تصوير تلك الزفرة المتردّدة بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحشا والترائب وهاتيك اللبانة التي أحل لها اكل الذرى والغوارب كما صورها العتّابي بأشرف لفظ ؟ .

وروي ان الشعراء ازدحموا بباب المأمون فقال لهم علي بن صالح : هل فيكم من يحسن ان يقول كما قال أخوكم العتّابي ؟ .

ما ذا عسى مادح يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديس وتطهيرُ
فت المادح الا ان السنا ... مستنطقات بما تحويه الضمائير

قالوا : لا والله ما منا أحد يحسن ان يقول مثل هذا وانصرفوا .

وقال دعبل : ما حسدت احداً قط على شعر كما حسدت العتّابي على قوله :

هيبة الاخوان قاطعةٌ ... لاخي الحاجات عن طلبهْ
فاذا ما هبتَ ذا أملٍ ... مات ما أملت من سببه

ومن شعره قوله في السحاب :

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر ... من فوقه طبق من تحته طبقُ
تظنه مصمتاً لا فتق فيه فإن ... سالتْ عزاليه قلت الثوب منفتق
ان معمع الرعد فيه قلت منخرقٌ ... او لألأ البرق فيه قلت محترق

وقوله :

لومٌ يعيذك من سوء تقارفه ... ابقى لعرضك من قول يداجيكا
وقد رمى بك في تيهاء مهلكة ... من بات يكتمك العيب الذي فيكا

واغتاظ منه الرشيد مرة فطلبه فستره جعفر بن يحيى واستعطف الرشيد عليه فقال فيه :

مازلت في غمرات الموت مطّرحا ... يضيق عني فسيح الرأي من حيلي
فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي ... حتى اختلست حياتي من يدي اجلي

وبلغه ان عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء فقال :

قد كنت أرجو ان تكون نصيري ... وعلى الذي يبغي علي ظهيري
وطفقت آمل ما يرجى سيبه ... حتى رأيت تعلقي بغرور
فحضرتُ قبرك ثم قلت دفنته ... ونفضت كفي من ثرى المقبور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورجعت مفتريًا على الامل الذي قد كان يشهد لي عليك يزور

فركب عمرو في موكبه واعتذر اليه .

هذا النمط من الشعر — شعر النفوس المطمئنة الهادئة التي لم تطمح الى زخرف الدنيا ولم تمقتها لرأي فلسفي ولم يلح عليها حب مبرح — لا يوقظ في نفس سامعه ثورة ولا يطفئ منها جمرة ولكنه صورة متناسقة تسعد بها العين ، ونغمة هادئة تلذ السمع ، فهو شعر الدرس والتهذيب في التصور والتصوير .

* * *

اما رسائله فقد ذكروا انه كان حسن الاعتذار فيها ، ولكننا لم نقف منها على ما يفسح للبحث مجالاً رحبًا يستقيم فيه إبداء الرأي وانما اطلعنا على رسالتين صغيرتين نقلهما ياقوت في معجم الادباء ، قال ومن منثور كلامه :

اما بعد : فانه ما من مستخلص غضارة عيش الا من خلال مكروه ، ومن انتظر بعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصتها .

وكتب الى آخر : من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك وانحاز الى نواحيك ، لم يخش المطنب في الثناء عليك ان يكون مفرطًا كما لا يأمن ان يكون مفرِّطًا ، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط اولى من الاطناب الذي غايته التقصير ومآله الى الحشو .

وروى له القالي رسالة كتبها الى صديق له وهي :

اما بعد : أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك الى رضوانه والجنة ، فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم ، تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب اليها ، وكنا نعفيها من النجعة استتمامًا لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف ، واشتد علينا كلبها ، وغابت قطرتها ، وكذبتنا غيومها ، واخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الاخوان فيها ، فانتجعتك وانا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمي بانك موضع الرائد ، وانك تغطي عين الحاسد ، والله يعلم اني ما أعدك الا في حومة الأهل ، واعلم ان الكريم اذا استحيى من إعطاء القليل ، ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ، ولم تظهر همته ، وانا أقول في ذلك :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظل اليسار على العباس ممدودُ وقلبه ابداً بالبخل معقودُ
ان الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهودُ
وللبخيل على امواله عللٌ زرق العيون عليها اوجة سودُ
اذا تكرمتَ عن بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بثَّ النوال ولم يمنعك قلته فكل ما سدَّ فقراً فهو محمود

قال فشاطره ماله حتى اعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه .

وطريقته في ذلك كطريقته في شعره من حيث الصنعة اللفظية ، ومعانيه في شعره احسن واوضح منها في هذه الرسائل . نعم من العبث ان يحكم الانسان على ترسله من هذا القدر القليل ، ولكن للعتّابي نفسه فقرة تدلنا على الطريقة التي كان يتبعها في رسائله ، قيل له بما قدرت على البلاغة ؟ قال بحلّ معقود الكلام . يريد بنثر النظم ومن ذلك ما كتبه الى صديق له وقد انكر عليه شيئاً .

إما ان تقر بذنبك فيكون إقرارك حجة علينا في العفو عنك ، والا فطب نفساً بالانتصاف منك فان الشاعر يقول :

أقرر بنفسك ثم اطلب تجاوزنا عنه فان جحود الذنب ذنبان

وذلك اعتراف منه باستعارة معاني غيره وهي طريقة لو انتفع بها العتّابي فقلما ينتفع بها غيره لان الوقت الذي يقضيه الانسان في استظهار الأشعار ليحلّ معقودها ويكون على ذكر مما يلائم الغرض الذي اليه يقصد ، لو قضى بعضه في التفكير وترويض النفس على تصيد المعاني لكان أجدى عليه ، ولو لم يكن العتّابي واسع العلم بالأدب كثير الرواية للشعر لما استقام له حل المعقود .

* * *

حدثناك عن العتّابي شاعراً وكاتباً مترسلاً وبقي علينا ان نحدثك عنه خطيباً فقد قال الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتّابي وعلي الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولّدين » .

ولكن اين خطبه ؟ وفي اي معنى كان يخطب ؟ لم نطلع على شيء منها ومع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك فاننا نقول ان صفة الخطيب بارزة فيه اكثر من صفة الشاعر والكاتب ، ولعلك تعجب من هذا الزعم ، فأرعني سمعك يزل عجبك .

دخل العتّابي على المأمون فقال له : يا كثوم بلغتني وفاتك فساءتني ، ثم بلغتني وفادتك فسرتني ، فقال له : يا امير المؤمنين لو قسمت هاتان الكلمتان على اهل الارض لوسعتاها فضلاً وإنعاماً ، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أُمنية ولا يبسط لسواه أمل ، لانه لا دين الا بك ولا دنيا الا بملك . فقال له سلني ، فقال : يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤال .

ووقف العتّابي بباب المأمون يلتمس الوصول اليه فصادف يحيى بن اكثم فقال له : استأذن لي على امير المؤمنين ، فقال له : لست بحاجبه ، قال العتّابي : فان لم تكن حاجباً فقد يفعل مثلك ما سألت ، واعلم ان الله عزّ وجلّ جعل في كل شيء زكاة ، وجعل زكاة المال رفد المستعين ، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف ، واعلم ان الله عزّ وجلّ مقبل عليك بالزيادة ان شكرت ، او التغيير ان كفرت ، واني لك اليوم اصلح منك لنفسك ، لاني ادعوك الى ازدياد نعمتك وانت تأبى . فقال له يحيى أفعل وكرامة .

وكلم العتّابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقلّ ، فقال له : وكيف لا يقلّ ؟ وقد تكنّفني ذلّ المسألة ، وحيرة الطلب ، وخوف الرد .

ووجد عليه الرشيد فدخل سراً مع المتظلمين بغير إذن وقال له : يا امير المؤمنين قد آذنني الناس لك ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولئم الصائن لنفسي كنتُ ، لو اعانني عليك الصبر .

وقال له مالك بن طوق : اما ترى عشيرتك — يعني بني تغلب — كيف تدل عليّ وتستطيل وانا اصبر ، فقال العتّابي : ايها الأمير ان عشيرتك من احسن عشرتك ، وان عمك من عمك خيره ، وان قريبك من قرب منك نفعه ، وان احب الناس اليك اخفهم ثقلاً عليك .

فقل لي ايها القارئ رعاك الله اليس هذا الأسلوب من القول أسلوباً خطابياً ، وكيف لا يكون من يرتجل مثل ما سمعت خطيباً مصقعاً ؟ فالعتّابي اذاً خطيب مفوّه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شديد العارضة سريع الخاطر لا يتلجلج ولا يتوقف ، وهو لا يقر بالبلاغة الا لمن كان كذلك ، فقد سأله صديق له عن البلاغة فقال : كل ذي كلام افهمك صاحبه حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة وما الاستعانة ؟ قال اما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه يا هناه ! اسمع مني ، واستمع اليَّ ، وافهم ، وألست تفهم ، هذا كله عي وفساد .

ولو ارسل المتنبي نفسه على سجيتها في شعره ورسائله كما كان يرسلها في كلامه لأتى بالرائع من الشعر والترسل وان كان الذي اتى به غاية في الحسن .

وبعد فالمتنبي شاعر بارع ، ومترسل فصيح ، وخطيب مفوّه ، واديب كبير ، ومؤلف محسن ، واستاذ منجب ، وقد جوّد في كل ما عاناه من ذلك ، وقلما اجتمعت هذه الصفات في غيره ، ولعله لو انصرف لواحدة منها لكان بها عبقرياً .

للبحث صلة